

معنى الشهادتين

قال المؤلف - رحمه الله تعالى -:

(وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا).

(الشرح)

بعد حمد الله تعالى، ثنى المصنف بالشهادتين، ومعنى **أَشْهَدُ**: أي أقر وأعترف وأجزم، كما لو كنتُ مشاهدًا لذلك بعيني رأسي، وإنما عبر بالشهادة، مع أن الشهادة معاينة بالبصر، لقوة اليقين، والشهادة الأولى أعظم شهادة، لأعظم مشهود به، من أعظم شاهد، قال تعالى: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ } [آل عمران: ١٨].

قوله: { لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } : كلمة التوحيد، أول الإسلام، وأوسطه، وآخره؛ فلا يُحکم بإسلام امرئ حتى يلفظ بالشهادتين، وهي بوابة الإسلام، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: [أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فِإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ]^١. وهي آخر الإسلام

^١ أخرجه البخاري: رقم (٢٥)، ومسلم: رقم (٢٢)

أيضاً، فقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم: **(مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)**^١.

وإله بمعنى مألوه، أي معبود، كما تقدم، فمعناها: لا معبود بحق إلا الله، وإنما احتجنا إلى تقييدها (بحق)؛ لأن الله أخبرنا أن ثم آلهة مدعاة؛ قال الله تعالى: **{أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا}** [الأنبياء: ٤٣]، **{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}** [الفرقان: ٣]، فالنفي في الشهادة ليس منصباً على الوجود، وإنما على الصحة، والأحقية.

وما من نبي بعثه الله إلا بادأ قومه بهذه الجملة: "يا قوم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"؛ قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، عليهم السلام، كما رتبهم الله، في سورة الأعراف، وكذلك في سورة هود، وفي سورة المؤمنون، جميعهم يقول: **{يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}** [الأعراف: ٥٩، ٨٥، ٧٣، ٦٥] **[هود: ٨٤، ٦١، ٥٠]**، **[المؤمنون: ٣٢، ٢٣]**، وقال الله على سبيل الإجمال: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء: ٢٥]، فيجب أن يعتصم بهذه الكلمة، فإنها المنجاة في الدنيا والآخرة، ومن لم يأت بها فلا حظ له، ولا نصيب.

قوله: **{لَا إِلَهَ}**: نفي لكل إله، وقوله: **{إِلَّا اللَّهُ}**: إثبات الإلهية، وحصرها في الله تعالى، وهذا أبلغ ما يكون في التوحيد والإفراد؛ لأنه إذا جاء الإثبات بعد

^١ أخرجه البخاري: رقم (٥٨٢٧)، ومسلم: رقم (٩٤)، كلاهما بلفظ (مَا مِنْ عِبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ)، وأخرجه أبو داود: رقم (٣١١٦)، باللفظ المذكور.

النفى أفاد الحصر، ويسمى "الاستثناء المفرغ من أعم الأحوال". مثال ذلك: لو قلت: زيد قائم. أفاد قيام زيد، لكن لا ينفي وجود قائم مع زيد؟ فربما قال قائل: محمد قائم، وإبراهيم قائم، وعمرو قائم، أيضاً، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد. أفاد أن زيدا هو القائم، ومن سواه غير قائم، ولما ذكر الله التوحيد، بغير هذه الصيغة، أتبعه بما يثبت الإفراد؛ قال تعالى: **{وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** [البقرة: ١٦٣]، حتى لا يقول قائل نعم هو واحد، لكن ثم غيره.

قوله: **{وَحْدَهُ}**: تأكيد للإثبات.

قوله: **{لَا شَرِيكَ لَهُ}**: تأكيد للنفي.

ولهذا كانت التلبية النبوية هي التوحيد، كما قال جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، في سياق حجة النبي، صلى الله عليه وسلم: **{فَأَهْلٌ بِالتَّوْحِيدِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ}** ^١.

^١ أخرجه مسلم: رقم (١٢١٨).

التوحيد وبيان أنواعه

قوله: **(إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا)**: مفعول لأجله، أي أنني أتيت بهذه الشهادة لقصد الإقرار والتوحيد، أو هي حال من الشاهد، أي حال كوني مقراً، موحداً له سبحانه بذلك، دون ما سواه.

والتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

النوع الأول: توحيد الربوبية: هو توحيد سبحانه بأفعاله؛ من الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله، وهو أمر قد فطر الله عليه البشر، فلا ينكره إلا الشُّذَّاذ الجاحدون، كفرعون حين قال: **{وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [الشعراء: ٢٣]، وهو أشهر من عُرف بإنكار الربوبية.

النوع الثاني: توحيد الألوهية: وهو توحيد الله بأفعال العباد، بصرف جميع أنواع العبادة لله، وعدم صرفها لسواه؛ سواء كانت عبادة قلبية: كالخوف، والرجاء، والمحبة، والتوكل، والاستعانة، والاستغاثة، أو كانت عبادة بدنية: كالصلاة، والصيام، والحج، وإمطة الأذى عن الطريق، أو عبادة مالية: كالزكاة، والصدقة، أو عبادة قولية: كالدعاء، والذكر، والتلاوة.

فجميع أنواع العبادات لا يجوز صرفها لغير الله؛ هذا توحيد العبادة، الذي بعث الله به المرسلين، وهو حلبة الصراع، ومعتك النزاع بين الأنبياء، وأقوامهم؛

قال تعالى: **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }** [الأنبياء: ٢٥]، فلم يكن الأقوام ينازعون في توحيد الربوبية، وإن شاب توحيدهم شوائب، لكنهم ينازعون في توحيد الألوهية.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو الاعتقاد الجازم بأن ما وصف الله تعالى به نفسه، من صفات الكمال، ونعوت الجلال، فهو مُستحق له، على وجه لا يُماثله فيه أحد، كما قال الله تعالى: **{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }** [الشورى: ١١]، فله سمع ليس كالأسماع، وله بصر ليس كالأبصار، وله وجه ليس كالوجوه، ويدان ليستا كالأيدي، فكل ما وصف الرب به نفسه فإننا نُقره ونثبته كما أثبتته ربنا، على وجه لا يُماثل ما للمخلوقين.

ومن العلماء من يجعل التوحيد قسمين:

القسم الأول: توحيد المعرفة والإثبات: هو توحيد الربوبية، والأسماء والصفات؛ لأنه توحيد علمي.

القسم الثاني: توحيد القصد والطلب: هو توحيد العبادة، الذي هو توحيد الألوهية، وهو التوحيد العملي، ولا معارضة بين التقسيمين، وإنما هو نوع من التفنن في الإجمال والتفصيل، وتقريب العلم لطالبيه.

قوله: (وَأَشْهَدُ): أي أقر وأعترف وأجزم، اعترافاً وإقراراً لا شك، ولا تردد فيه.

قوله: (أَنَّ مُحَمَّدًا): علم على نبينا، صلى الله عليه وسلم، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي.

قوله: (عَبْدُهُ): وصفه بالعبودية رد على أهل الغلو.

قوله: (وَرَسُولُهُ): وصفه بالرسالة رد على أهل الجفاء.

وهكذا الحق دوماً وسط بين طرفين، وعدل بين عوجين، فنصف نبينا، صلى الله عليه وسلم، بما وصفه به ربه؛ فإن الله تعالى وصفه بالعبودية، في أشرف المقامات.

١. في أشرف ليلة مرت به، وهي ليلة الإسراء والمعراج، قال الله تعالى:

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: ١].

٢. في أشرف أحواله، وهو حال تنزل القرآن، واتصال كلام الله تعالى به،

قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١].

٣. في أشرف وظيفة يقوم بها بشر، وهي الدعوة إلى الله عز وجل، قال الله

تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن:

١٩]؛ فالوصف بالعبودية لله شرف، وأي شرف! قال القاضي عياض-

رحمه الله:-

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخصمي أطأ الشريا
دخولي تحت قولك: يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبياً

فالوصف بالعبودية لله وصف كريم، ومن ادعى الخروج عن حد العبودية فهو كافر زنديق؛ فمن زعم أنه في حل من الأوامر والنواهي، وأنه بلغ درجة سقطت عنه التكاليف، فقد كفر بالله العظيم، وهذا يصدر من زنادقة الصوفية، الذين يزعمون شهود الحقيقة الكونية، والتحلل من الحقيقة الشرعية، ويقول قائلهم:

أصبحت منفعلًا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات
ويرخي لنفسه الزمام، ويطأ الحرام، بدعوى أنه بلغ درجة اليقين، **{وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}** [الحجر: ٩٩]، هكذا تتلاعب بهم الشياطين.

أما الوصف بالرسالة فهو، أيضاً، وصف شرفي للنبي، صلى الله عليه وسلم، حيث اصطفاه الله تعالى لكي يكون مهبط وحيه، ومحضن كلامه؛ قال الله تعالى: **{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}** [الحج: ٧٥]، ولما قال بعض المشركين: **{لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ}** [الزخرف: ٣١]، رد الله عليهم بقوله: **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}** [الزخرف: ٣٢]، فالله هو الرزاق، وهو الوهاب؛ قال الله تعالى: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [الأنعام: ١٢٤]، فاصطفاه الله لنبية بالرسالة مبني على علم وحكمة.

فوصفه صلى الله عليه وسلم بالعبودية رد على أهل الغلو، الذين يطرون النبي، صلى الله عليه وسلم، إطرأ لا ينبغي إلا لله، وهذا يقع من المداحين في الموالد، وغيرها؛ يتجارى بهم الغلو في المديح، كما يتجارى الكلب بصاحبه، حتى إنهم يخلعون على النبي، صلى الله عليه وسلم، أوصافاً لا تنبغي إلا لله، ومن القصائد المشهورة في هذا قصيدة البوصيري، التي يقول فيها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا غلو فاحش، فأين توحيد الله، إذا صرف اللواذ، وطلب العفو من غيره؟! وماذا أبقى لله إذا كان يجعل الدنيا والآخرة، وما في اللوح المحفوظ بعض ما للنبي، صلى الله عليه وسلم؟! هذا من الغلو، الذي نهى عنه النبي، صلى الله عليه وسلم بقوله: **(لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ)**^١، وَعَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: (قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمْنَا طَوْلًا، فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِينَكُمْ الشَّيْطَانُ)^٢.

وفي وصفه بالرسالة رد على أهل الجفاء، الذين لا يعطون النبي، صلى الله عليه وسلم، حقه؛ من الإكرام، والإجلال، والتوقير؛ قال تعالى: **{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}** [الفتح: ٩]، فتجب نصره النبي، صلى الله عليه وسلم، ظاهراً وباطناً، وتوقيره لفظاً ومعنى.

قوله: (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ): قال الإمام أحمد: (آله): أتباعه على دينه إلى يوم القيامة؛ لأن الآل مشتقة من الأول، وهو الرجوع، فكل من انتمى إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، واتبعه، فهو من آله.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: رقم (٢١١)، قال الألباني: (صحيح)، وأخرجه أبو داود: رقم (٤٨٠٦)

، وأحمد: رقم (١٦٣٠٧)، قال ابن حجر: رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد من العلماء.

وذهب بعض الشراح إلى أن الآل إذا قرنت بالأصحاب فإنها تختص بالمؤمنين من أهل بيته، وهم البطون الخمسة: (آل عقيل، وآل علي، وآل جعفر، وآل الحارث بن عبد المطلب، وآل العباس)، الذين لا تحل لهم الصدقة، فالمؤمنون من هذه البطون هم آل النبي، صلى الله عليه وسلم.

قوله: (وَصَحْبِهِ): جمع صاحب، أو صحابي، وهو من لقي النبي، صلى الله عليه وسلم، في حياته مؤمناً به، ومات على ذلك.

شرح التعريف:

(هو من لقي النبي ﷺ): وهذا خير من قول بعضهم: من رأى؛ لأنه ربما كان أعمى، وقيدها بعض العلماء، بقوله: (في حياته)؛ ليخرج بذلك من رآه بعد موته، وهذا ليس له إلا مثال واحد؛ أبو ذؤيب الهذلي، هاجر إلى المدينة في اليوم الذي مات فيه النبي، صلى الله عليه وسلم، فرأى النبي، صلى الله عليه وسلم، بعين رأسه، وهو مسحى؛ قد مات؛ فلا يُعد صحابياً، لأنه لم يلق النبي، صلى الله عليه وسلم، في حياته.

(مؤمناً به): فلو أنه لقي النبي، صلى الله عليه وسلم، حال كفره لم يثبت له وصف الصحبة، حتى لو أسلم بعد ذلك، وهذا ينطبق على كثيرين لقوا النبي، صلى الله عليه وسلم، في الموسم، حين كان يعرض نفسه على القبائل، ولم يؤمنوا به، ثم آمنوا بعد أن أظهر الله الإسلام، ولم يلقوا النبي، صلى الله عليه وسلم، حال إيمانهم.

(ومات على ذلك): فلو لقيه مؤمناً به، ثم ارتد؛ زال عنه وصف الصحبة، لأن الردة تبطل جميع العمل، لكن إن رجع إلى الإسلام، عاد له وصف الصحبة، وهذا، أيضاً، ينطبق على كثيرين، ممن وقعت منهم ردة، وحاربهم الصديق، ثم فاءوا إلى الإسلام، ومنهم طليحة بن خويلد الأسدي، الذي كانت له صحبة، ثم ارتد وادّعى النبوة، ثم منّ الله عليه، ورجع إلى الإسلام^١.

قوله: (وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا مَزِيدًا): التسليم: دعاء بالسلامة، أو تحية، أو كلاهما، ولا مانع من اجتماعهما، أما الدعاء له بالسلامة في حياته فهو أمر بين، حتى يدفع الله عنه السوء، ويعصمه من الناس، وأما بعد موته فدعاء بالسلامة لدينه وسنته، وقد يقال: المقصود سلامة جسده الشريف، فإنه قد وقع في غضون التاريخ أن قوماً من الزنادقة أرادوا سرقة جسده الشريف، وسعوا في ذلك! في قصة مشهورة، إبان حكم الملك عماد الدين زنكي-رحمه الله-، حتى تمكن من الإيقاع بهم وقتلهم.

^١ انظر تدريب الراوي: (٢٠٨/٢).